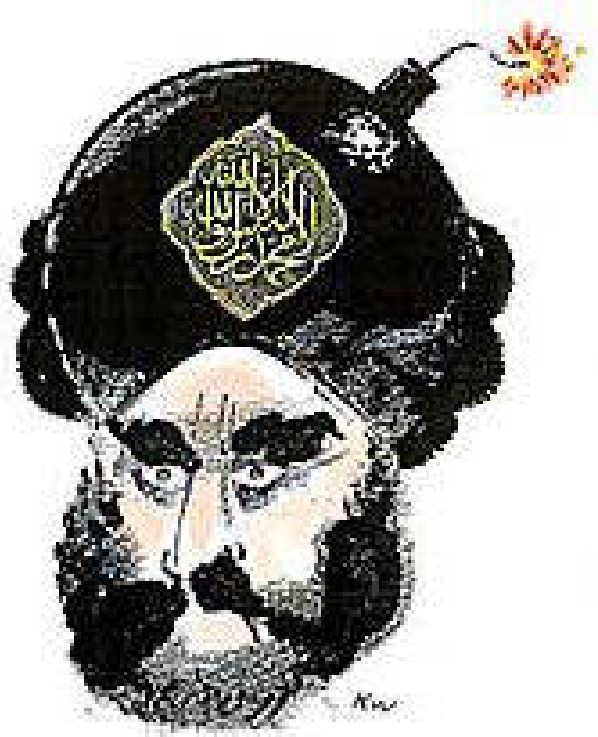


صراع الحضارة مع الهمجية

ملاحظات فنية عن الرسوم الكاريكاتيرية للنبي محمد

يكتبها: صلاح شوان



Muhammad, Al. East West Gallery



Muhammad, Al. Karami and Husei

في هذه الاسطر لا نروم الاساءة الى احد، بل نحاول فقط تسليط بعض الضوء على اشهر بضعة رسوم كاريكاتيرية عرفتها البشرية، وابداء الرأي فنيا لا تعني الموافقة او الاستنكار من الوجة الفكرية او الايديولوجية او الدينية على تلك النتاجات الفنية، بل مجرد تقييم فني، ونحن اذ نؤكد على رأينا الحر ضمن قانون بلدنا، وفي إطار بيتنا، انما نحذر الآخرين من التجاوز على حريتنا في بيتنا، دون ان نطرق باب احد او نسمح بفرض اساليبهم علينا في بيوتنا، واعذر من انذر.

الكاريكاتير فن مرح للتعبير المتحضر عن موقف او تعليق خفيف مضحك على حالة او مشهد، وهي اسلوب اعلامي فني متحضر ابتكرتها الحضارة الغربية في مسيرتها الثقافية المعاصرة، وقد تطول التنظيرات حول فن الكاريكاتير لنا هنا بصدها.

الرسوم التي اطلع عليها العالم هي رسوم بسيطة تتوفر فيها الشروط الاساسية للفن الكاريكاتيري، لان الكاريكاتير تشترط اول ما تشترط، الوصول المباشر والتاثير الفوري على المتلقي، وردود الفعل التي نراها في الملايين في المجتمعات العربية، والاسلامية التابعة لها خير دليل على الوصول المباشر والعريض الى من يهيمه الامر، وما رأيناها من اعمال عنيفة بأساليب متخلفة تضيف بعدا آخر واقعا على المضمون الذي يكمن في الرسوم المذكورة، وتؤكد مصداقيتها الواقعية والحقيقية، فقد عبرت الرسوم مسبقا عن الحالة التي اتبعها المجتمعات التي تنبأت بعقلية معتقيا وثقافتهم إستنادا الى المخزون الثقافي المعروف عن تلك المجتمعات، ولايستطيع اي ناقد مهما كان ضليعا، ان ينكر النجاح المنقطع النظير للرسوم المذكورة واقعا، فالتنظير مهما تعمقت لا تستطيع تجاوز الفعل الواقعي المنبثق من ردود الفعل التي نراها لدى من يهمهم الامر.

والناقد الفني يقف عاجزا امام هذا المنجز الفني البسيط الكبير الذي تجاوز كل الحدود والتنظيرات والطروحات على ارض الواقع الفعلي، بسبب تاثيرها المضموني الذي لا يمكن فصله عن الشكل بأي حال من الاحوال، وهي ظاهرة بحاجة الى اعادة النظر من قبل النقاد والمنظرين في الوظيفة الفنية والفكرية للفن برمته، فالاسس الفنية من بساطة في الخطوط والالوان والتشكيلات والكتل الموزعة على مساحة الرسم منسجمة تماما مع الاسس النقدية للفن الكاريكاتيري، وكل هذه الاسس توفرت بشكل متقن في بعض او كل هذه الرسوم، فالرسم الاشهر من هذه الرسوم هي تلك التي تمثل رأس النبي محمد، الذي اخذ شكل قبيلة على وشك الانفجار، وقد كتبت على جبهته عبارة (لا اله الا الله محمد رسول الله)، هذه العبارة لاتدل على فهم صحيح لغرض الرسم، او انها متأتية من الجهل بمضمون العبارة، لان المفترض ان لايحمل النبي محمد نفسه مثل هذه العبارة، بل ان المسلمين الآخرين يحملونها، وكانت عبارة (الله اكبر) اكثر واقعية او فنية من العبارة السابقة، لان عبارة (الله اكبر) هي التي تستخدم عند قتل او ذبح ضحية ما، او عند شن الحروب لغزو الشعوب الآمنة المسالمة، وعند ارتكاب اية جريمة وحشية او مجزرة او ما شابهها، كما نرى ونسمع من المسلمين الحقيقيين والمضطهدين بحقيقة الاسلام والمشبعين بالثقافة الاسلامية الحقيقية مثل الشيخ بن لادن ومساعدته الدكتور ايمن الظواهري وثالثهما اللوطي ابو مصعب الزقاوي، وهي تنسجم اكثر مع تعابير الرسم المذكور، وملامح الرسم الذي يمثل النبي محمد، وهي ملامح غاضبة مشحونة بالشر والحقد، والغباء والهمجية، والعنجهية المنفوخة بالفراغ، وكأن صاحبه في الحقيقة اقرب الى قبيلة على وشك الانفجار، كما تؤكد القسم الاعلى من الرسم التي تمثل عمامة اسلامية تكمل بشكل متناغم قسما الوجه المذكورة، العيون التي تقدح شررا تبوح بشكل فني بسيط ومعبر مدى العنف والوحشية التي يتسم بها الشخصية المرسومة، كما ان الشفه المزمومة بشدة بحيث لا تظهر منها اية خطوط، تضبف إختزالا وبساطة معبرتان اخريان الى التعبيرات الموفقة للفنان الذي رسم الكاريكاتير، لانها تضبف اقتصادا على الخطوط وتجسيدا للاجزاء الاخرى من الرسم في ضوء ما فسرناه من حالات نفسية وايديولوجية عنيفة متممة يحملها الرمز المرسوم.

وملاحظة اخيرة عن هذا الرسم تستوجب الاشارة اليها هي الشعر الاسود الكثيف الخشن المجعد، الذي يوحي بالشرقية والاحادية الشديدة والحسم المطلق في الرأي والفرض الاجباري اللاحضاري الهمجي، التي تعود الى 14 قرنا الغابرة، من المعروف ان الخطوط المستقيمة تدل على البساطة والمطلق والصفاء، والخطوط المنحنية بسلاسة تدل على الاسترخاء والتحضر والانثوية والغنى، وأما الخطوط المنكسرة المتشابكة التي استخدمت في هذا الرسم تدل على التعقيد والغباء والتشوش واختلاط الحابل بالنابل، التي تؤدي الى الفوضى والدمار والتخلف والوحشية، وهي صفات واسس تزخر بها الشخصية المرسومة والثقافة التي نشرها، وهي تعابير تكررت في شكل الحواجب الكثة النافرة التي تتماثل مع بقية الشعر الذي يغطي معظم الوجه ويصبغه بلون اسود قاتم توحى بالموت والدمار والحريق والتفجيرات الانتحارية الاسلامية، والرسم بكامله يوحي بزمن غابر قديم للدلالة على التخلف الحضاري المثير للضحك والسخرية.

واما الرسم الثاني وحسب تصنيفي الشخصي لها، هو الرسم الذي يمثل النبي محمد وهو يمتشق مديّة ضخمة، تذكرنا بالمديّة التي ذبح بها اللوطي ابو المصعب الزرقاوي الشاب الغربي المسكين بالخروف، وهذه إلتفاتة ذكية من الفنان للربط بين الشخصيتين وإظهار الترابط الفكري والايديولوجي بين الشخصيتين، وذبح الانسان جزء من الثقافة الاسلامية الوحشية كما هو معروف، وهو إستخدام موفق للرمز الحي الذي يتعلق بالذاكرة الجماعية للبشرية لتسليط الضوء الكاشف على حالة قديمة بهتت في الذاكرة الجماعية للاكثرية العادية من البشر، فإثارة الذاكرة لدى المتلقي لاضافة مكملات ذاتية لدى المتلقي على العمل الفني، جزء مهم من اسلوب الفن الرفيع ووظيفته، وهذه الالفتات الذكية تصبغ العمل بسمة ابداعية تعشي اعين النقاد والمتلقين عن اية نواقص ربما شابته العمل الفني. واما الشخصية نفسها فلا تخيف قدر ما تثير الفكاهة ببطنه المنتفخ وملابسه المتكونة من اسمال بالية لا توحى بالعسكرية او المقاتل قدر ماتوحي بالاسترخاء او الشهوانية، والتي تكتمل بالخلفية المتمثلة بشخصيتين انثويتين تجسدان الرعب والذهول والعجز، وهي صفات اساسية في الشخصية الانثوية الاسلامية كما يعرفها البشرية اليوم، وهما انثيان محجبتان من نوع الحريم التي تستخدم كأدوات جنسية ملحقة بالشخصية الرئيسية، اكثر من ان تكونا انسانين يملكان الكرامة الانسانية والحقوق المشروعة للانسان.

فكاهية الشخصية الرئيسية بالمقارنة بالشخصيتين الدراميتين الملحقتين، تعبر عن المفارقة الفكاهية - الدرامية للحالة المرسومة بشكل متقن وعمق فني لا تتوفر في الاكثرية الساحقة من الاعمال الفنية الكبيرة والشهيرة لاعظم الفنانين في العالم حتى اليوم، فهذه الغنى الدرامي - الفكاهي لا تتوفر - مثلا - في اعظم لوحة فنية معرفة في هذا المجال، الا وهي لوحة جيورنيكا للفنان الكبير بابلو بيكاسو، فجيورنيكا التي تعبر عن الحرب الاهلية الاسبانية في القرن المنصرم والتي تعلقها منظمة الامم المتحدة على احدى جدرانها، لاترقى الى مستوى عشر الاعشار من هذا الرسم الكاريكاتري البسيط العظيم، لانها لم ولن تحدث معشار ما أحدثها هذا الرسم الكاريكاتيري، ولا تتضمن معشار الاشارات والغنى الفني لهذا العمل كما اوضحنا بعضها هنا، ولا تعبر عن اعشار هذه القضية، فالحرب الاهلية التي حدثت في رقعة صغيرة من العالم، ولم يذهب ضحيتها الا بضعة الالاف من البشر، ولم تستمر الا فترة قصيرة، مقابل شمول هذا الرسم غرضا اكبر من آلاف الحروب الاهلية وغير الاهلية، وعلى رقعة ملايين الكيلومترات من الارض التي تفوق الالف المرات رقعة اسبانيا، وعلى مدى الف واربعانة عام وليست بضعة اعوام فقط، اضافة الى الضحايا التي لاتعد ولاتحصى وتتجاوز الملايين بأبسط التقديرات، ان لم نقل المليارات من البشر، انا شخصا احد ضحاياه الاحياء الذن قتلوا ويقتلون خلال مدد اعمارهم آلاف المرات بموجب تلك التشريعات الهمجية التي لا تترك حتى حرية التبول التغوط على هوه للبشر.

يقال: وراء كل رجل عظيم امرأة، لكن الفنان هنا جعلها امرأتين، فإذا كانت ذرة اوكسجين مضافة الى ذرتين هيدروجين تشكل ماء، فماذا يمكن ان تشكل ذرة اوكسين مضافة الى ذرة واحدة من الهيدروجين؟ ربما القنبلة الذرية او الهيدروجينية، واذا كانت امرأة واحدة وراء كل رجل عظيم، فماذا يمكن ان يكون من الرجال من ورائه امرأتان؟ ربما محمدا او رجل قنبلة، يدوية او نووية، هذا ما اوحى اليّ الرسم بخلفية محمد بأمرأتين، امرأتان ابعد ما تكونتا من ان تخلقتا رجلا عظيما، فهما متشحتان بالسواد من قمة الرأس حتى ما ظهر من اسفل الرسم، وهما اشبهتا بمدفونتين احياء اكثر مما توحيان بأي سمة حياتية او وجودية او تفاؤل او شئ آخر، وهما مجرد صورتان متقابلتان لخيمة متنقلة مشحونة بالخوف والرعب والعجز والدهشة القاتلة وما تتبع هذه الحالات، وهما عاجزتان كليا عن منع العنف الذي على وشك الوقوع، فلا أثر لاية ايدي لهما، ولا فم للتعبير والصوت للاحتجاج او البوح بما تظهر على محياهما من تعبير عظيمة الجلاء، مقابل الايدي العنيفة الحركة للنبي محمد والمديّة الضخمة بيده اليمنى، وتلمس الفراغ بيده اليسرى، المكملة لحركته الكلية الهجومية.

الرسم تتحمل الكثير من التأويلات التي تؤدي كلها الى ما اشرنا الي بعضها، كمجرد نماذج، مطلقين العنان لمخيلة القارئ للذهاب حيث يشاء من التصور المتعمق في كل هذا العنف والهمجية والتخلف التي تهدد البشرية بالفناء.

يتبع